المقدمة

الحمد لله أولاً وآخرًا، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه.

وبعد:

فإنَّ طريق الأدب طويلة فسيحة تمتد عبر التاريخ منذ أقدم العصور، إلى يومنا هذا، إلى ما يشاء الله بعد ذلك من أزمان قادمة.

إنها طريق حافلةٌ بآلاف النماذج الأدبية القائمة على رؤىً وتصوُّرات، والمنبثقة من أفكار وعقائد، منها ما هو خيِّرٌ صالح، ومنها ما هو شرِّير طالح.

إنها طريق الأدب بما فيها من جبال وسهول، ومفازات مهلكة، وحفر وسدود، وأشواك وزهور، وهي مع ذلك طريق عامرةٌ بالمشاة، لا تخلو من السالكين ما بين مغذٍّ في سيره بعيد الخُطا، ومتباطئ يمشي الهُوينى، ومقعد يزحف زحفا، ومستلق ليس به حراك.

إنها طريق الأدب الممتدة من آلاف السنين عَبْر قلوب

خافقة، ونفوس عاشقة، وعقول متألِّقة، وألسنة ناطقة، طريقٌ تسمع فيها خفقات قلوب المحبين، وزفرات المشتاقين، وترى فيها ومضات الأفكار، وبريقَ العيون الوالهة، والذكريات الغامرة، طريق حافلة بالمواقف والأحداث، مرصوفة بالأفكار والاتجاهات.

إنها الطريق الحيَّة التي يسلكها الأدباء والشعراء على اختلاف أجناسهم ومشاربهم الدينية والفكرية والثقافية، والتي يحف بها المحبون للأدب، المتعلّقون برونق الكلمة، وجمال الصورة، وفنيّة الأداء، يجلس هؤلاء المحبون على جنبات هذه الطريق، يسمعون ويقرؤون ويتحاورون، ويؤيدون ويعارضون.

إنها طريق الأدب التي ظلَّ امتدادها برغم زلازل الأفكار، وأعاصير الثقافات امتداداً لا ينقطع؛ لأنه موصول بمشاعر السائرين في هذه الطريق، والحافّين بها من جوانبها، الخارجين منها والقادمين إليها، وما من أمة من الأمم إلا لها في هذه الطريق آثار أقدام، يبصرها من يأتي بعدهم من السالكين، يستدلون بها على ملامح شخصيات الأمم الماضية؛ لأن الآثار الأدبية لتلك الأمم من أهم الوسائل التي تقرب إلى

الأذهان صورتها الحقيقية، فكم أبرز الأدب شخصية أمة مضت، ما كان لنا أن نعرفها معرفة متكاملة لولا نصوصه التي حملت لنا صورًا من عقيدتها وثقافتها وفكرها وسياستها؛ فأدب المصريين القدماء، وأدب الإغريق واليونان، والعرب قديماً ركيزة من ركائز التعرف عليهم، ولوحةٌ بارزةٌ يرى فيها المتابع ما يستدلُّ به على ما يطمره غبار الزمن من أوصافهم وصور حياتهم.

وما من أمة من الأمم إلا لها أدب تبرز من خلاله شخصيتها، فتراها ماثلة أمام عينيك صورةً جلية تظهر على جناحين خافقين من الشعر والنثر يحلقان بها في آفاق الزمن الطويل.

من هنا كانت علاقة الأدب بشخصية الأمة ـ كل أمة ـ علاقة وطيدة لا يفصمها ما يبرز أحياناً في أدب الأمة من نماذج منحرفة على منهجها، بعيدة عن حقيقة شخصيتها المتميّزة.

ولا شك أنه كلما كانت هذه العلاقة قويةً منسجمة مع عقيدة الأمة وفكرها وثقافتها كان الأدب المعبر عنها، قوياً

مؤثرًا صادقاً في نقل صورتها نقلاً واضحاً ينفض عنها غبار السنوات الطوال اللاهثة في دروب الزوال.

ولذلك كان لهذه العلاقة في حالتي إيجابها وسلبها أثرٌ فعَّال في بناء شخصية الأمة أو هدمها، مما يجعل دراستها مطلباً حضارياً تستدعيه حاجة الأمة إلى دراسات جادة واعية تكشف لها حقائق الأمور.

ولست أزكّي ما قدّمته هنا فإني أعترف سلفاً أن هذا الذي أقدمه يظل عملاً متواضعاً إذا ما قيس بأهمية الموضوع وخطورته، وإنما أردت أن أعبِّر عن شعوري تجاه هذا الموضوع، لعلَّ أقلاماً نقدية أقوى وأرسخ تتناوله بالدراسة العميقة الجادة.

وقد دفعني إلى تناول هذا الموضوع أمران:

أحدهما: ما نراه من تيارات أدبية معاصرة جُمع معظمها في «سلَّة الحداثة» تحاول أن تقطع هذه العلاقة، وأن تبتر سياق الأدب في الأمة سعياً إلى إنشاء سياق أدبي جديد يستمد ملامحه من الثقافة المعاصرة القائمة على الرفض والتمرُّد، وهو اتجاهٌ بارز في دراسات نقاد معاصرين يرسِّخون هذا الانقطاع «كتابة الحداثيين العرب تشكِّل قطيعة مع

المرجعية الدينية والتراثية وتقيم مرجعين بديلين قائمين على العقل والواقع»[1].

بل إن هؤلاء يعلنون أن التقدم الحضاريَّ مرهون بتحقق هذا الانقطاع بين الأدب وشخصية الأمة «لابد من ترك التفاخر بالماضي وأمجاده، فإنّ ذلك العصر لم يعد لنا، وخطوتنا الأولى هي الانفصال عن الماضي مهما كان عظيماً، والارتباط بالحاضر ارتباطاً وثيقًا»[2].

بل إن منهم من يجعل التمرُّد على هذه الشخصية طريقاً للتحرُّر الحقيقي «هذا الإنسان ليس سجين دائرة الزمن المنحدرة دوماً، أو مفعولاً لها، إنه الفاعل الذي يحرك زمنه بتمرُّده»[3].

ولاشك أن تحريك الزمن بالتمرُّد سيكون وسيلة دمار وانحراف.

---

(١) خالدة سعيد، مجلة فصول في عددها الثالث، المجلد الرابع الصادر عام ١٩٨٤، ص: ٢٧.

(٢) أدونيس، الثابت والمتحول «صدمة الحداثة»، ص : ٦٦، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م.

(٣) جابر عصفور، قضايا وشهادات، ملف الحداثة رقم (١)، ص: ٣٦٧، دار عيبال، قبرص، ١٩٩١م.

ثانيهما: ضرورة طرح المنهج الإسلامي في الأدب طرحاً علمياً موثَّقاً تبرز من خلاله وشائج الاتصال القوي بين شخصية أمتنا الإسلامية والأدب الحيّ النابض الذي يعبّر عن هذه الشخصية؛ لأنَّ في هذا الطرح بياناً لخطورة الدعوة إلى تمرُّد الأدب على عقيدة الأمة وفكرها من جانب، وإيضاحاً لأهمية توثيق الصلة بين الأدب وشخصية الأمة في هذه المرحلة الخطيرة التي تعبرُ فيها الصحوة الإسلامية الراشدة مضيق المؤامرات العالمية الصليبية الصهيونية، من جانب آخر.

«إننا معشر المسلمين بحاجة اليوم ـ أكثر من أي يوم مضى ـ إلى منهج لأدبنا الإسلامي المنشود، وذلك لأننا نتعرَّض في هذا العصر لغزو فكري ووجداني وحضاري ما عرفنا له نظيرًا من قبل»[1].

لقد انحرف مسار الآداب العالمية عن الرسالة الحقيقية للأدب، المنسجمة مع فطرة الإنسان السليمة، فكان لزاماً على كل أديب مسلم غيور أن يصحح المسار، لا لإنقاذ المسلمين وحدهم من هذا الركام الأدبي الزائف، بل لإنقاذ البشرية كلها

(١) د/ عبد الرحمن الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص : ٨٥، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ١٤٠٥هـ .

برسم معالم الأدب الصحيح الذي يبني ولا يهدم، ويصل ما انقطع ولا يتمرَّد.

«إن الدعوة إلى الأدب الإسلامي في المجتمع الإسلامي دعوة إلى أنْ تبرأ الأمّة من الانفصام الحادث بين عقيدتها وعبادتها وسلوكها وفكرها من ناحية، وبين عواطفها ومشاعرها وأحاسيسها وخيالها من ناحية أخرى»[1].

لقد دفعني هذان الأمران إلى الكتابة عن علاقة الأدب بشخصية الأمة، أعني الأمة الإسلامية التي تقوم حياتها الدينية والفكرية والأدبية على ركيزة ثابتة من كتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام ومواقف الأعلام من سلفنا الصالح ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

وهي ركيزة تعرَّضت ـ خاصة في هذا العصر ـ لمحاولات جادّة مدعومة من أعداء الإسلام البعيدين والقريبين لتقويضها وقطع الصلة بها، كما برز ذلك في كتابات المستغربين

(١) د/ أحمد محمد علي، الأدب الإسلامي ضرورة ص: ١٣ «المقدمة»، رابطة الجامعات الإسلامية، مصر، طبعة أولى ١٤١١هـ.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

«الحداثيين» وغيرهم من أبناء هذه الأمة، كما هو واضح في قول أحدهم: «لسنا من الماضي، اللاماضي هو سرُّنا.. نقول للإرثيين إننا نتخطَّى ما كنتموه، وما ورثتموه، نهدم أيضاً لكن بلوعة، فنحن هدَّامون»[1].

هذه الكتابات السَّامة بالرغم من فظاعتها إلاَّ أنها سرعان ما تتلاشى كفقَّاعات تطير في الهواء ثم لا تكون شيئاً أمام الرؤية الإسلامية الممتدة سلفاً وخلفاً، ماضياً وحاضرًا ومستقبلاً، الرؤية الإسلامية التي تخترق حجب الضلال والانحراف العقدي والفكري لترى بنور الله حقيقة هذا الوجود، وطبيعة هذه الحياة البشرية المجبولة على فطرة الخير، إننا ـ نحن المسلمين ـ جذور ممتدَّة في تجربة هذا الكون منذ انبثاق فجر الرسالات السماوية جميعها القائمة على قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ** ﴾[2]، وقوله لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً** ﴾[3]، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) أدونيس، زمن الشعر، ص : ٢٢٥، دار العودة، طبعة ثانية ١٩٧٨م.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤١.

ولذلك كانت رسالتنا الأدبية رسالة عظيمة؛ لأنها امتداد لرسالة الإسلام الشاملة الكاملة، القائمة على التوازن بين معطيات الحياة البشرية، وجوانبها المختلفة، وهو التوازن الذي تفتقر إليه المدنية الغربية المعاصرة التي ما تزال تتجاذبها التيَّارات الفكرية والأدبية والسياسية، وتتقاذفها أمواج المذاهب البشرية التي لا تستقر على حال.

وقد حاولت في هذه الدراسة المتواضعة أن أتناول بعض القضايا التي تتعلَّق بهذه الرسالة الأدبية الكبيرة فناقشت علاقة الأدب بشخصية الأمة، ومصطلح الأدب الإسلامي وما يدور حوله من شبهات، وما يحيط به من تساؤلات، كما أشرت إلى قضية التجربة الشعورية من حيث عناية الأدب الإسلامي بها وحرصه على نضجها وصدقها لتكون تجربة نافعة مثمرة، ثم ناقشت قضية فصل الدين عن الأدب لما لها من أهمية كبرى إذْ إنَّ معظم الآراء المعارضة للأدب الإسلامي تنطلق من منطلق خطورة الدين على فنية الأدب والجانب الإبداعي فيه، وترى أن انفصال الأدب عن الدين يتيح له فرصاً كبيرة من الإبداع لا تتحقق إلا بهذا الانفصال، يقول أحدهم: «لقد خاطب رامبو

المسيح بقوله: «يسوع، يا لصاً أزلياً يسلب البشر نشاطهم»، وحين تصل جرأة الإبداع العربي إلى هذا المستوى، أي حين تزول كل رقابة، يبدأ الأدب العربي سيرته الخالقة المغيِّرة البادئة المعيدة»[1].

وهذا قول من عشرات الأقوال التي يحارب أصحابها الدين ويرونه عائقاً في طريق الأدب.

لقد ناقشت هذه القضية بعد أن أوردت أقوال بعض الأدباء الذين يرون الفصل بين الدين والأدب، وأقوال بعض الذين يرون وجوب مراعاة الدين في الأدب، ثم ختمت هذه الدراسة بالكتابة عن شخصية الأمة في الأدب الإسلامي، مشيرًا إلى رعاية الإسلام للمواهب الأدبية، وحرصه على أن تتميز نصوص أدبه بإبداع فني مؤثر، وأن يكون لها دور بارز في بناء شخصية قوية للأمة الإسلامية، علماً بأنني أعترف هنا أن الموضوع يحتاج إلى مناقشة أعمق ودراسة أشمل، إنه كالأرض الخصبة كلما زاد حرثُها زاد عطاؤها.

(١) أدونيس، زمن الشعر ص : ١٤٨.

وقبل الختام، أحيي كل قلم إسلامي أسهم ويُسهم في إضافة لبنات إلى بناء الأدب الإسلامي إبداعاً ونقدًا، وأشكر ـ سلفاً ـ كلَّ من يقدم لي توجيهاً أو نقدًا يسد به ثغرة في هذه الدراسة المتواضعة، والله المستعان.

د/ عبد الرحمن بن صالح العشماوي